قصة نوح في القران الكريم- دراسة موضوعية

د. عماد جاسم محمد الجبوري
الجامعة المستنصرية-كلية التربية الأساسية

المق

الحمد لله رب العالمين ، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد و آله و صحبه أجمعين ، أما بعد ...

فقد ذكر الله تعالى في القران الكريم قصصاً كثيرة لنأخذ منها الدروس و العبر ، و كما قال سبحانه (لقد كان في قصصهم عبرة لأُولي الألباب)[1]، ومنها قصص بعض الأنبياء ، ومنهم نوح (عليه السلام) ،فقد ذكر الله أطرافاً من قصته في سورٍ عديدة ، مع عدم مراعاة التسلسل في قصته ، و ذلك تبعاً للسورة المذكور فيها هذه الايات ،و لو قمنا بجمع هذه الايات لتكونت لنا وحدة موضوعية عن قصته من بدايتها ، و حتى نهايتها .

وقصة سيدنا نوح (عليه السلام) لها أهمية كبيرة جداً ، ففي وقته ظهر الكفر بين بني ادم ، فأرسله الله لتصحيح اعتقادهم ، و معالجة أخطائهم ، و لقد تعرض الى صعوبات عديدة في طريق دعوته الى الله تعالى ، و في قصته احداثٌ كثيرة و مهمة ، لأجل ذلك فقد اخترت قصته لتكون موضوعاً لبحثي المقدم الى مجلة كلية التربية الأساسية ، فكان عنوان البحث (**قصة نوح في القران الكريم ، دراسة موضوعية**) ، لذا فإنني لم اعتمد على الاحاديث الضعيفة أوالروايات الاسرائيلية ، و إذا ما ذكرت بعضها أحياناً فإنما للرد عليها.

وقد قمت بتقسيم البحث الى ثلاثة مباحث ، و كل مبحث الى عدة مطالب و كالاتي :

المبحث الاول : تناولت فيه اسمه و عائلته و زمنه ، و الايات التي تحدثت عنه ، في ثلاثة مطالب ، المطلب الاول : اسمه ونسبه و عائلته ، و المطلب الثاني: الزمن الذي عاش فيه ، والمطلب الثالث : الايات و السور التي تحدثت عنه.

و المبحث الثاني : بحثت فيه ارسال نوح الى قومه ، و دعاؤه عليهم ، و ذلك في ثلاثة مطالب ، المطلب الاول :دعوة قومه الى الايمان ، و المطلب الثاني : ترغيبهم بالايمان ، وتحديهم له ، و المطلب الثالث : دعاؤه على قومه .

والمبحث الثالث : تكلمت فيه عن صناعة السفينة ، و حدوث الطوفان ، و ذلك في ثلاثة مطالب : المطلب الاول:صناعة السفينة ، و المطلب الثاني :بداية الطوفان ، و المطلب الثالث: نهاية الطوفان .

و ختمت البحث بخاتمة ذكرت فيها أهم الاستنتاجات التي استنتجتها من هذه الدراسة .

---

[1] سورة يوسف الاية (١١١) .

و في الختام اسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، و أن ينفعنا به في الدنيا و يوم يقوم الدين ، و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

و السلام عليكم و رحمة الله و بركاته

المبحث الأول : اسمه و عائلته ، و زمنه ، و الايات التي تحدثت عنه :

المطلب الأول : أسمه و نسبه و عائلته :

ذكر بعض المؤرخين أن نسب نوح هو (نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ ، و أخنوخ هو إدريس بن يرد بن مهلائيل بن قينن بن انوش بن شيث بن ادم أبي البشر عليه السلام)[١]،ولنا ملاحظة على هذا،سنذكرها لاحقاً، ان شاء الله تعالى[٢] .

و لكن بعض العلماء أنكر أن يكون إدريس قبله ، اذ (قال ابن العربي و من قال ان إدريس كان قبله من المؤرخين فقد وَهم ، و الدليل على صحة وهمه الحديث الصحيح في الاسراء حين لقي النبي (صلى الله عليه و سلم) ادم و ادريس ، فقال له ادم : مرحباً بالنبي الصالح و الابن الصالح ، و قال له ادريس : مرحباً بالنبي الصالح و الاخ الصالح) [٣] ، فلو كان ادريس اباً لنوح لقال مرحباً بالنبي الصالح و الابن الصالح ، فلما قال له و الاخ الصالح دل ذلك على انه يجتمع معه في نوح ، صلوات الله عليهم أجمعين ، و لا كلام لمنصف بعد هذا)[٤].

والذي نراه انه لم يقل له الابن الصالح لان ادم ابو البشر ، و نوح الاب الثاني للبشر بعد الطوفان ، و بما ان إدريس كان قبل الطوفان فاكتفى بمقولة ادم للنبي (عليه و عليهم الصلاة والسلام)، و لان الأخوة هنا تعني الأخوة في النبوة ، و الله اعلم .

و لكن اذا كان ادريس قبل نوح (عليهما السلام) فكيف يعتبر نوح اول رسول الى اهل الارض ؟ و كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عندما يقول ادم (عليه السلام) للناس (أئتوا نوحاً أول رسول بعثه الله الى أهل الارض ، فيأتون نوحاً فيقولون : يا نوح انت أول الرسل الى اهل الارض)[٥]، و الجواب على هذا هو أن (إدريس كان نبياً غير مرسل)[٦]، مثل النبي شيث (عليه السلام) و الذي كان قبل نوح (عليه السلام)باتفاق الجميع ، و مع هذا فلم يرد عليه اشكال كالاشكال الذي ورد حول ادريس (عليه السلام)، و بهذا فان نوحاً (عليه السلام) يعتبر

---

[١] جامع البيان / الطبري (٣٠٥/٧) و تأريخ الرسل و الملوك/ الطبري (١٧٢/١)، و المنهاج/ النووي (٢٦٩/٢) .

[٢] راجع موضوع(الزمن الذي عاش فيه) ص ٥ .

[٣] صحيح مسلم / كتاب الايمان ، باب الاسراء (١ / ١٤٨) .

[٤] الجامع لاحكام القران / القرطبي (٢٣٢/٧) .

[٥] صحيح البخاري /كتاب الرقاق،باب صفة الجنة و النار (٢٥٨/٣-٢٥٩) .

[٦] الجامع لاحكام القران /القرطبي (٢٣٢/٧) .

اول رسول أُرسل الى اهل الارض بعد ان ظهر الشرك في بني ادم ، و انه كان بعد ادريس (عليه السلام) والله اعلم.

و قوله (أول رسول الى أهل الارض) (ليس المراد به عموم بعثته بل اثبات أولية ارساله)[١] .

و بالنسبة لاسمه فقيل (عبد الغفار)[٢]، و قيل انما(سمي نوحاً لكثرة ما ناح على نفسه ، و اختلفوا في سبب نوحه ، فقال بعضهم لدعوته على قومه بالهلاك ،و قيل لمراجعته ربه في شأن ابنه كنعان ، و قيل لانه مَرّ بكلبٍ مجذوم فقال اخسأ يا قبيح ، فأوحى الله تعالى اليه أعبتني أم عبت الكلب ؟)[٣]، و هذه الاقوال لا تستند الى أي دليل ، لذا فأننا نؤيد الرأي القائل (أنه اسمٌ وضع له حين ولد ، و ليس مشتقاً من النياحة)[٤]، و أن إسمه (أعجمي منصرفٌ لخفته)[٥].

أما عائلته فتتكون من زوجته التي كفرت بدعوته ، و خانته في رسالته فلم تؤمن به ، وكما قال تعالى (ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح ، و امرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً و قيل ادخلا النار مع الداخلين)[٦]، وهي الاية الوحيدة التي أشارت الى امرأة نوح (عليه السلام) ، و قيل (كان اسم امرأة نوح والهة ، و اسم امرأة لوط والعة ، قاله مقاتل .. وقيل أن اسم امرأة نوح واعلة ، و اسم امرأة لوط والهة)[٧]، و هذه الاقوال غير ثابتة ، و لا تستند الى دليل من القران الكريم او السنة النبوية المطهرة ، و لو كان لمعرفة الاسم اهمية لذكره لنا القران الكريم او السنة النبوية، وانما لم يخبرنا عن ذلك لأن المهم اخذ العبرة من القصة ، بغض النظر عن الاسم .

و قيل عن امرأة نوح (أنها ماتت قبل الطوفان ، و قيل انها غرقت مع من غرق، و كانت ممن سبق عليه القول لكفرها)[٨]، وهو ما نرجحه ، فمثلما نزل غضب الله تعالى على زوجة لوط لتكذيبها زوجها نبي الله لوطاً (عليه السلام) كذلك كان الحال مع زوجة نوح (عليه السلام)فشملها غضب الله تعالى انتقاماً منها لتكذيبها زوجها نبي الله نوحاً (عليه السلام) . والخيانة

---

[١] فتح الباري / ابن حجر العسقلاني (٣٩٠/٢) .
[٢] روح المعاني /الالوسي (٥٣٩/٨) .
[٣] معالم التنزيل / البغوي (٢٠١/٢) .
[٤] روح المعاني / الالوسي (٥٣٩/٨) .
[٥] القاموس المحيط/ الفيروز ابادي،باب الحاء،فصل النون(٢٣٧) .
[٦] سورة التحريم الاية (١٠) .
[٧] الجامع لاحكام القران / القرطبي (٢٠١/١٨) .
[٨] البداية و النهاية / ابن كثير (١٥٥/١) .

المذكورة في الاية السابقة لا يقصد بها الخيانة الزوجية و انما (كانت خيانتهما انهما كانتا مشركتين ..مخالفتين دين النبي كافرتين بالله)[١]، (و لا يجوز ان تكون خيانتهما بالفجور، و عن ابن عباس : ما بغت امرأة نبي قط)[٢]، و هذا اكراماً للانبياء (عليهم الصلاة و السلام) .

اما اولاده فكانوا اربعة (حام و سام و يافث و يام ، و هو الذي يسميه اهل الكتاب كنعان ، و هو الذي قد غرق)[٣]، و ورد عن الزهري أنه قال (ان العرب و فارس و الروم واهل الشام و اهل اليمن من ولد سام بن نوح ، و السند و الهند و الزنج و الحبشة و الزط والنوبة ، و كل جلد اسود من ولد حام بن نوح ، و الترك و بربر و وراء الصين و يأجوج ومأجوج و الصقالبة ، كلهم من ولد يافث بن نوح، و الخلق كلهم ذرية نوح)[٤]، و نسبة البشر الى اولاد نوح بهذا التقسيم قول اجتهاديٌ لا يستند الى أي دليل ، و نسبتهم الى نوح صحيحة حيث أكد القران عليها بقوله تعالى (ذرية من حملنا مع نوح انه كان عبداً شكوراً)[٥]،(و قيل انه كان لنوح ولد يدعى عابر ، و قد مات قبل الطوفان)[٦]، وهو قول لا يستند الى أي دليل فلا نعول عليه.

المطلب الثاني : الزمن الذي عاش فيه :

لم يذكر لنا القران الكريم المدة الزمنية الفاصلة ما بين ادم و نوح (عليهما السلام)، ولكن ورد عن ابن عباس (رضي الله عنهما) انه قال (كان بين ادم و نوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين و منذرين)[٧].

وهذا القول لم يذكر لنا ما المقصود بالقرن ، هل يقصد به الجيل ، فيكون المعنى عشرة أجيال، وعلى هذا يكون بينهما الآف السنين لأن البشر في بداية نزولهم الى الارض كانت أعمارهم طويلة ، أم يقصد بذلك مائة سنة ، فيكون بينهما ألف سنة ؟ .

هناك رأيان في الموضوع، و نحن نؤيد الرأي الاول ، لأن الله تعالى عندما ذكر في القرآن الكريم كلمة قرن أو قرون ، قصد بذلك جيلاً أو أجيالاً ، و كما قال تعالى (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكنّاهم في الارض)[٨]، و قال تعالى (و كم أهلكنا من القرون من بعد

---

[١] جامع البيان / الطبري (١٩٠/٢٨) .

[٢] مفاتيح الغيب / الرازي (٥٧٥/١٠) .

[٣] راجع تأريخ الرسل و الملوك للطبري (١٨٣/١) ،و البداية و النهاية / ابن كثير (١٥٥/١) .

[٤] الجامع لاحكام القران / القرطبي (٢٣٣/٧) .

[٥] سورة الاسراء الاية (٣) .

[٦] البداية و النهاية / ابن كثير (١٦١/١) .

[٧] تأريخ الرسل و الملوك / الطبري (١ / ١٧٨) .

[٨] سورة الانعام الاية (٦) .

نوح)[١]، و الى غير ذلك من الايات المباركات ،كذلك فان الرسول (صلى الله عليه وسلم) أستخدم كلمة قرن ، و قصد بها الجيل ، وكما قال في الحديث الصحيح (خيركم قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)[٢] .

و بالعودة الى حديث ابن عباس (رضي الله عنهما) نلاحظ أن هذا القول لم يوضح بداية هذه المدة، هل يبتدأ حسابها من نزول ادم الى الارض ام من وفاته ؟و نهايتها ، هل من ولادة نوح أم من تأريخ مبعثه؟ و بهذا سيكون امامنا احتمالات اربع :

الاول : من نزول ادم الى ولادة نوح ، و الثاني : من نزول ادم الى مبعث نوح ، والثالث: من وفاة ادم الى ولادة نوح ، و الرابع : من وفاة ادم الى مبعث نوح .

و قوله (كلهم على الاسلام) يجعلنا نستبعد الرأيان الثاني و الرابع عن دائرة الترجيح، لأن الله تعالى بعث نوحاً (عليه السلام) ليدعوا قومه الى الاسلام بعد ان ظهر فيهم الشرك ،و يبقى أمامنا الرأي الثالث الذي لا نرجحه ، لأننا لو أخذنا به سنستبعد الجيل الاول الذي عاش على الارض ، وهو جيل ادم (عليه السلام) فقوله بين (ادم و نوح) أي من نزول ادم الى الارض و ليس من وفاته ، لذا فاننا نميل الى الرأي الاول و نرجحه ، لأن الغرض من الحديث بيان عدد الاجيال التي عاشت على الاسلام من نزول ادم (عليه السلام) والى ولادة نوح (عليه السلام) و الله أعلم .

و لكن اذا كان الناس عاشوا هذه الفترة الطويلة على التوحيد ،فكيف ظهر الشرك فيهم ؟ و الجواب على ذلك هو ما روي عن عبد الله بن عباس(رضي الله عنهما) عند تفسيره لقوله تعالى (و قالوا لا تذرن الهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً)[٣] أنها (أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان الى قومهم أن انصبوا الى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً و سموها بأسمائهم، ففعلوا ، فلم تعبد حتى اذا هلك أولئك و تنسّخ العلم ، عُبدت)[٤].

فهذا القول يظهر لنا بشكل جلي كيف أن الشيطان استطاع الدخول الى قلوب هؤلاء مستغلاً حبهم لهؤلاء الصالحين ، فلم يأمرهم في البداية بعبادتهم ، و انما وسوس لهم نصب تماثيل تشبههم ، توضع في مكان جلوس كل واحد منهم في مجالسهم العامة، يستأنسون برؤيتها لتذكرهم بهؤلاء الصالحين ، و ظاهر الامر ليس فيه حرج أو حرام ، لانهم يعلمون سبب نحت

---

[١] سورة الاسراء الاية (١٧) .

[٢] صحيح البخاري/ كتاب الشهادات،باب لا شهد على شهادة جور..(٥٨٤/١).

[٣] سورة نوح الاية (٢٣) .

[٤] صحيح البخاري / كتاب تفسير القران،باب (وداً و لا سواعاً) (٢/ ٥١٩).

هذه التماثيل ، و كانت هذه هي الخطوة الاولى للشيطان لتنفيذ مخططه في اغواء بني ادم (عليه السلام) ، أما الخطوة الثانية فكانت بعد انقراض هذا الجيل حيث جاء الجيل اللاحق فوجد هذه الاصنام أمامه ، و لم يكن تسلّح بسلاح العلم من سلفه ليخبره بحقيقة هذه الاصنام ، فاستغل الشيطان جهلهم فوسوس لهم أن اباءكم اتخذوا هذه الاصنام للعبادة لتقربهم الى الله فاعبدوها كما عبدها سلفكم ، و بهذا ظهر الشرك في ذرية ادم (عليه السلام) .

أذن السبب الاول لظهور الشرك هو الجهل بحقيقة العبادة ، واندراس العلم ، و لعل الجيل السابق لهؤلاء يتحمل مسؤلية كبيرة في هذا المجال ، فلو أنهم لقّنوا أبناءهم اصول العبادة الصحيحة، و أعلموهم سبب صنع تلك التماثيل لما أغواهم الشيطان بالشرك بالله تعالى، و لكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً .

و بما اننا رجحنا أن المقصود بالقرن هو الجيل ، فالمفروض أن يكون بين ادم ونوح عشرة آباء، غير اننا اذا عدنا الى سلسلة النسب السابقة فسنجد ان عددهم تسعة اباء اذا اعتبرنا ان ادم هو الاب الاول، وهذا الامر سيجعلنا امام احتمالين اثنين :

الاول :أن الحديث غير صحيح ،وهو ما نستبعده ، إذ قال عنه الحاكم (هذا حديث صحيح على شرط البخاري ، ولم يخرجاه)[1] .

الثاني:أن سلسلة النسب غير صحيحة ، لأنها لم ترد من طريق صحيح موثوق به ، وانما ذكرها أهل الأخبار فتناقلها عنهم بعض المفسرين ، وهو ما نرجحه ،و حتى لو أخذنا بالرأي القائل بأن بينهما ألف سنة فلا يمكن أن يكون بينهما تسعة اباء ، لأن أعمارهم في ذلك كانت طويلة تمتد الى مئات السنين ، و الله أعلم .

المطلب الثالث :الايات و السور التي تحدثت عنه :

ذكر الله تعالى اسم نوح (عليه السلام) في ثلاث و اربعين اية، من بينها ست ايات في ست سور مدنية، وهي سور : ال عمران الاية (٣٣) و النساء الاية (١٦٣) والتوبة الاية (٧٠) والاحزاب الاية (٧) والحديد الاية (٢٦) و التحريم الاية (١٠) ، و الملاحظ انها اما ذكرت اسمه فقط مثل قوله تعالى(انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح و النبيين من بعده)[2] ، أو اسمه مضافاً الى قومه كقوله تعالى (ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد و ثمود ...)[3]، و لم تذكر قصته أو أي جزء منها .

وسبع و ثلاثين اية في اثنتين وعشرين سورة مكية ، و هي سور:

---

[1] المستدرك على الصحيحين / الحاكم (٢ / ٤٨٠) .

[2] سورة النساء الاية (١٦٣) .

[3] سورة التوبة الاية (٧٠) .

الانعام الاية (٨٤) و الاعراف الايتان (٥٩ و ٦٩) ويونس الاية (٧١) و هود الايات (٢٥ و٣٢ و٣٦ و٤٢ و٤٥ و٤٦ و٤٨و٨٩) وابراهيم الاية (٩) والاسراء الايتان (٣ و١٧) ومريم الاية (٥٨) والانبياء الاية (٧٦) والحج الاية (٤٢) والمؤمنون الاية(٢٣) والفرقان الاية (٣٧) والشعراء الايات (١٠٥ و١٠٦ و١١٦) والعنكبوت الاية (١٤) والصافات الايتان (٧٥ و٧٩) وسورة (ص) الاية (١٢) وغافر الايتان (٥ و٣١) والشورى الاية (١٣) وسورة (ق) الاية (١٢) والذاريات الاية (٤٦) والنجم الاية (٥٢) والقمر الاية (٩) ونوح الايتان (٢١ و٢٦) ، والملاحظ على قسم منها أنها ذكرت اسمه فقط كقوله تعالى (ونوحاً هدينا من قبل)[١] ،أو اسم قومه مضافاً الى اسمه دون الاشارة الى قصته كقوله تعالى(كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود)[٢] ، وذلك في سور (الانعام وابراهيم والاسراء ومريم والحج والفرقان وص وغافر والشورى وق والذاريات والنجم) ، أما القسم الثاني فذكر قصته أو بعضها في سور (الاعراف ويونس وهود والانبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات والقمر ونوح) .

ولعل الحكمة في ذكر قصته في السور المكية دون المدنية هو تسلية للنبي (صلى الله عليه و سلم)، وإعلامه أن ألانبياء قبله كُذبوا كذلك ، و تثبيتاً لقلوب المؤمنين و ليصبروا على الأذى الذي تعرضوا له، وللتأكيد على أن الله ناصرهم على عدوهم ، مثلما نصر الرسل السابقين و أتباعهم .

واذا قمنا بجمع هذه الايات فاننا سنكون وحدة موضوعية للقصة من خلال ايات القران الكريم ، لأن بعض السور انفردت بذكر احداث لم تذكرها غيرها ، مثال ذلك أن سورة هود ذكرت مخاطبة نوح لابنه، واستقرار السفينة بعد نهاية الطوفان على جبل الجودي ، و هذا ما سنحاول القيام به (ان شاء الله تعالى) .

المبحث الثاني : ارسال نوح الى قومه ، و دعاؤه عليهم :

المطلب الاول :دعوة قومه الى الايمان:

بعد أن ظهر الشرك في قوم نوح ، فأن الله أرسله اليهم ليدعوهم الى التوحيد، و قد تعددت ألاقوال حول عمره عندما أُرسل ، فقيل (بعثه الله الى قومه وهو أبن خمسين سنة ، وقال أبن عباس : أبن أربعين سنة، و قيل بُعث وهو أبن مائتين و خمسين سنة ، و قال مقاتل أبن مائة سنة)[٣]، و قيل (و هو أبن خمسين و ثلاثمائة سنة ،... و قيل وهو أبن أربعمائة سنة و ثمانين)[٤]، و لا يثبت أي قول منها ، و إنما مجرد إجتهادات خالية من أي دليل ، ولكننا نرجح

---

[١] سورة الانعام الاية (٨٤) .

[٢] سورة ق الاية (١٢) .

[٣] معالم التنزيل / البغوي (٢٠١/٢) .

[٤] تأريخ الرسل و الملوك / الطبري (١٧٩/١) و الكامل في التأريخ / أبن ألأثير (١/ ٦٨) .

أن يكون عمره حين أُرسل ، أربعون سنة ، قياساً على عمر النبي (صلى الله عليه و سلم) عندما كلّفه الله بالرسالة ، و الله أعلم .

و قد أختلف العلماء في عمر نوح (عليه السلام) على رأيين :

الأول :أن عمره كاملاً تسعمائة و خمسون سنة، و دليلهم في ذلك قول تعالى (و لقد أرسلنا نوحاً الى قومه فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان و هم ظالمون)[١]، (قال قتادة : لبث فيهم قبل أن يدعوهم ثلاثمائة سنة ، و دعاهم ثلاثمائة سنة ، و لبث بعد الطوفان ثلاثمائة و خمسين سنة)[٢].

الثاني :أن عمره أكبر من ذلك ، و أن المقصود بمدة اللبث في الاية السابقة هو من حين تكليفه بالرسالة الى حين الطوفان ، إذ قيل (كان عمر نوح (عليه السلام)ألفاً و خمسين سنة، بُعث على رأس أربعين، و لبث في قومه تسعمائة و خمسين ، و عاش بعد الطوفان ستين)[٣]، و إلى غير ذلك من الاقوال. ونحن نرجح الرأي الثاني ، لأن الاية تحدثت عن مدة لبثه بينهم من حين تكليفه بالرسالة بدليل أنها أبتدأت بقوله :(و لقد أرسلنا) ثم قال (فأخذهم الطوفان)، فالمقصود من الاية بيان المدة الطويلة التي قضاها نوح بين قومه يدعوهم فيها الى الايمان والى أن نزل بهم غضب الله تعالى ، و الله أعلم .

و ابتدأ نوح بدعوته قومه الى التوحيد و الايمان بالله ، و كما قال سبحانه (ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره أفلا تتقون)[٤]، فاستغرب قومه من هذه الدعوة التي لم يسمعوا بها من قبل لطول ألأمد عليهم ، لذا تصدى زعماء القوم للرد عليه خوفاً منهم أن تكون هذه الدعوة سبباً في زعزعة سيطرتهم على أتباعهم ، و أستغلالهم لجهودهم ، و بدلاً من الدفاع عن معتقداتهم الباطلة وتبريرها ، فإنهم توجهوا بالهجوم عليه متهمينه بأنه ضال عن الحقيقة ، منحرف عن منهجهم ، يريد تفريق كلمتهم ،و تشتيت شملهم ، وإنما قالوا ذلك ليحاولوا تنفير الناس عنه وعن دعوته ، فلا يسمعونها أصلاً، وكما قال تعالى (قال الملأ من قومه انا لنراك في ضلال مبين)[٥] ، و المقصود بالملأ (الجماعة من الرجال، لا امرأة فيهم ، أنهم قالوا له حين دعاهم الى عبادة الله وحده لا شريك له : (انا لنراك) يا نوح (في ضلال مبين) يعنون : في أمر زائل عن الحق ، مبين زواله عن قصد الحد لمن تأمله)[٦]، فأذا كان

---

[١] سورة العنكبوت الاية (١٤) .

[٢] الجامع لاحكام القران / القرطبي (٣٣٢/١٣) .

[٣] الكشاف / الزمخشري (٣ / ٤٤٥) .

[٤] سورة المؤمنون الاية (٢٣) .

[٥] سورة ألاعراف الاية (٦٠) .

[٦] جامع البيان / الطبري (٢٤٥/٨) .

نوح قبل دعوته موصوف بالرشاد ، فكيف يُتهم بعد ذلك بالضلال ؟ لهذا فأنه نفى هذا ألاتهام عن نفسه ، و كما قال تعالى (قال يا قوم ليس بي ضلالة ، و لكني رسول من رب العالمين ، أُبلغكم رسالات ربي و أنصح لكم، وأعلم من الله ما لا تعلمون)[١]، فقوله (ليس بي ضلالة) يعني (أي شيْ من الضلال ، بالغ في النفي كما بالغوا في الاثبات)[٢] ، لهذا فان نوحاً (عليه السلام) (لم يرد النفي منه على لفظ ما قالوه ، فلم يأت التركيب : لست في ضلال مبين ، بل جاء في غاية الحسن من نفي ان يلتبس به و يختلط ضلالة ما واحدة ، فأنى يكون في ضلال ، فهذا أبلغ من الانتفاء من الضلال ، اذ لم يعتلق به و لا ضلالة واحدة، وفي ندائه لهم ثانياً و الاعراض عن جفائهم ما يدل على سعة صدره و التلطف بهم ، و لما نفى عنه التباس ضلالة مَا به ، دلّ على أنه على الصراط المستقيم ، فصح ان يستدرك كما تقول : ما زيد بضال و لكنه مهتد ، و (لكن) واقعة بين نقيضين ،لأن الأنسان لا يخلو من أحد الشيئين : الضلال و الهدى ، و لا تجامع ضلالةٌ ، الرسالةَ ، وفي قوله (من رب العالمين) تنبيه على أنه ربهم لأنهم من جملة العالم)[٣].

ثم انهم أثاروا حوله شبهة أُخرى فقالوا كيف يمكن أن يرسل الله للبشر رسولاً منهم ، و لو أراد الله أن يرسل إلينا رسولاً لأنزل علينا ملائكة لتبلّغنا رسالته ، و احتجوا على هذا بأنهم لم يسمعوا من ابائهم أن الله أرسل إليهم رسولاً من بينهم ،و كما قال سبحانه (فقال الملأُ الذين كفروا من قومه ما هذا الا بشرٌ مثلُكُم يريد أن يتفضّل عليكم و لو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في ابائنا الأولين)[٤] ، (أي لو أراد أن يبعث نبياً لبعث مَلَكاً من عنده و لم يكن بشراً ما سمعنا بهذا ، أي ببعثة البشر في ابائنا الأولين ، يعنون بهذا أسلافهم و أجدادهم في الدهور الماضية)[٥]،و لم ينتبهوا الى أن اباءهم لم يكونوا بحاجة الى ارسال رسول إليهم ، لأن الشرك لم يكن ظاهراً فيهم ، و أنما ظهر في أبنائهم ، فاستدعى ذلك إرسال نوح اليهم ، لذا رد عليهم قائلاً (أوَ عجبتم)[٦] (و ما من عجب في هذا ألإختيار ، فهذا الكائن ألإنساني شأنه عجيب ، أنه يتعامل مع العوالم كلها ، و يتصل بربه بما رُكب في طبيعته من نفخة الله فيه من روحه ، فإذا اختار الله من بينه رسوله ، و الله أعلم حيث يجعل رسالته ، فإنما يتلقى هذا

---

[١] سورة الاعراف الايتان (٦٢،٦٣) .

[٢] أنوار التنزيل / البيضاوي (٣ / ١٨) .

[٣] البحر المحيط / أبو حيان (٣٢١/٤) .

[٤] سورة المؤمنون الاية (٢٤).

[٥] تفسير القران العظيم / أبن كثير (٣ /٢٥١) .

[٦] سورة الاعراف الاية (٦٣) .

المختار عنه ، بما أودع في كيانه من إمكانية الإتصال به و التلقي عنه ، بذلك السر اللطيف الذي به معنى الانسان ، و الذي هو مناط التكريم العلوي لهذا الكائن العجيب التكوين)[١].

ولكنّ هذا المعنى لا يفهمه هؤلاء القوم ، لذا اتهموا نوحاً بالجنون ، و كما قال تعالى على لسانهم (ان هو إلا رجلٌ به جنةٌ فتربصوا به حتى حين)[٢] ، (و الجنة : الجنون أو الجن ، أي : به جنٌ يخبلونه)[٣]،فاتهموه بالجنون لأنه دعاهم الى عبادة الله وحده لا شريك له، و ترك عبادة الأصنام التي لاتنفع و لا تضر ، و لو كان لديهم رأي سديد و عقل رشيد لاتهموا أنفسهم بالجنون بدلاً من اتهام غيرهم ، لأنهم خضعوا لتماثيل صوّروها و نحتوها بأنفسهم ، و تركوا عبادة الله خالقهم و رازقهم ، وهم يعلمون في قرارة أنفسهم أن هذا الاتهام باطل ، و أرادوا من خلاله صرف الناس عن دعوته ، حيث أنهم لا يملكون الحجج الكافية لرد رسالة نوح و دعوته فلجأوا الى التصريحات الباطلة لعلها تجدُ اذاناً صاغية .

ثمّ انهم تشاوروا فيما بينهم في كيفية التعامل معه ، فقال بعضهم لبعض : (تربصوا به حتى حين) (أي : انتظروا موته ، و قيل حتى يستبين جنونه)[٤]، و نستبعد أن يكون المقصود بذلك القول الثاني لأنه في نظرهم قد استبان جنونه بأصراره على دعوته ،و نرجح أن المقصود بذلك أي انتظروا موته فتتخلصوا منه و من دعوته من غير أن تناقشوه فيها فتفشلوا في نقاشكم فيُفتضح أمركم ، و انقضى هذا الجيل وجاء الذي بعده و كرّر هذا الكلام ، و نوح لازال على قيد الحياة ماضياً في دعوته ، مسلّماً أمره لربه تبارك وتعالى .

و لكن كل المحاولات التي حاولها قومه لصرف الناس عنه لم تَحُل دون أيمان بعضهم برسالته ، عند ذلك توجهوا الى نوح قائلين له : لو كان في دعوتك خير لما امن بها أراذلنا ، وكما قال تعالى على لسانهم (ما نراك إلا بشراً مثلنا و ما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ، و ما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين)[٥]، و في اية أُخرى (و اتبعك الأرذلون)[٦] ، و معنى (بادي الرأي) أي (الذين هم أراذلنا في ظاهر الرأي ، و فيما يظهر لنا)[٧]، و معنى (أراذلنا) أي (سفلتنا ، و الرذل : الدون من كل شيْ)[٨]،(و أنما استرذلوهم

---

[١] في ظلال القران / سيد قطب (٣ /١٣٠٩) .
[٢] سورة المؤمنون الاية (٢٥) .
[٣] الكشاف / الزمخشري (٣ /١٨٣) .
[٤] الجامع لاحكام القران / القرطبي (١٢ /١١٩) .
[٥] سورة هود الاية (٢٧) .
[٦] سورة الشعراء الاية (١١١) .
[٧] جامع البيان / الطبري (١٢ /٣٣) .
[٨] معالم التنزيل / البغوي (٢ /٤٤٥) .

لاتضاع نسبهم ، و قلة نصيبهم من الدنيا ، و قيل كانوا من أهل الصناعات الدنية كالحياكة والحجامة)[1]، و الذي نراه أنهم استرذلوهم لفقرهم ، فقالوا كيف نكون مع هؤلاء على دين واحد ، و نحن مميزون عنهم ؟ لذا طلبوا من نوح طرد الفقراء اذا أراد منهم أن يؤمنوا به ، والغريب أن هؤلاء المشركين لم يعترضوا على هؤلاء الفقراء عندما كانوا و إياهم على دين واحد، فلما امنوا بنوح بدأوا بالاعتراض عليهم لأيهام عامة الناس أن هناك اتفاقاً و مصالح مالية و دنيوية مشتركة بين نوح و هؤلاء الفقراء ، دفعتهم لإظهار الايمان به لتحقيق تلك المصالح ، و ليس الهدف من هذه الدعوة أن تكون لله تعالى، وإنما لتكون الدعوة الى الله غطاءً للاهداف غير المعلنة .

وهكذا و بعد ان رأوا أن المستضعفين اتبعوه لأنهم وجدوا في دعوته الخير و الصلاح، اتهموه بهذا الاتهام محاولين زعزعة ثقة الناس به .

بعد أن سمع نوح هذا الاتهام الجديد رد عليهم قائلاً (يا قوم لا أسألكم عليه مالاً ان أجري الا على الله ، و ما أنا بطارد الذين امنوا ، انهم ملاقوا ربهم ، و لكني أراكم قوماً تجهلون . و يا قوم من ينصرني من الله ان طردتهم أفلا تذكرون)[2]، قال الفخر الرازي (وتقرير هذا الجواب من وجوه :

الوجه الاول: أنه عليه السلام قال : أنا لا أطلب على تبليغ دعوة الرسالة مالاً حتى يتفاوت الحال بسبب كون المستجيب فقيراً أو غنياً ، و انما أجري على هذه الطاعة الشاقة على رب العالمين ، و اذا كان الامر كذلك فسواء كانوا فقراء أو أغنياء لم يتفاوت الحال في ذلك .

الوجه الثاني: كأنه عليه السلام قال لهم إنكم لما نظرتم الى ظواهر ألأمور وجدتموني فقيراً و ظننتم أني إنما اشتغلت بهذه الحرفة لأتوسل بها إلى أخذ أموالكم ، و هذا الظن منكم خطأ فإني لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً،إن أجري إلا على رب العالمين فلا تحرموا أنفسكم من سعادة الدين بسبب هذا الظن الفاسد .

والوجه الثالث : في تقرير هذا الجواب أنهم قالوا (ما نراك إلا بشراً مثلنا) إلى قوله (و ما نرى لكم علينا من فضل) ، فهو عليه السلام بيّن أنه تعالى أعطاه أنواعاً كثيرة توجب فضله عليهم ، و لذلك لم يسعَ في طلب الدنيا ، و إنما يسعى في طلب الدين ، و الإعراض عن الدنيا من أُمهات الفضائل باتفاق الكل ، فلعل المراد تقرير حصول الفضيلة من هذا الوجه)[3].

و الذي نراه أنه يمكن الجمع بين هذه الوجوه بالقول أن نوحاً بيّن لهم أنه لا يبغي منفعة معنوية ، فهو رسول رب العالمين ، و لا يريد منهم مالاً لقاء دعوته لهم ، إنما أجره على الله

---

[1] الكشاف / الزمخشري (٣ /٣٢٤) .

[2] سورة هود الايتان (٢٩ ،٣٠) .

[3] التفسير الكبير / الفخر الرازي (٦ /٣٣٩) .

وحده الذي أرسله ، و فضّله عليهم بالرسالة، و كما قال تعالى في اية أُخرى (و ما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين)[١] ، و أن دعوته لا تميز بين غني أو فقير، وأنه لن يستجيب لطلبهم بطرد الفقراء ، لأن الذين يريدون الهداية و معرفة الحقيقة لا يهمهم الجلوس مع الفقراء أو غيرهم ، و الله أعلم .

ثمّ أن نوحاً (عليه السلام) قال لهم إنما فضلني الله عليكم بالرسالة ، و ليس بالمال لأني لست أكثركم مالاً ، كما أني لا أدعي علم الغيب فلا أعلم ما في داخل نفوس أصحابي، هل اتبعوني لوجه الله أم لغير ذلك؟ فحسابهم على الله ، فإنهم إن كانوا صادقين في إيمانهم فإن انتقاصكم لهم لن يضرهم لأن الله سيجازيهم خيراً، وكما قال سبحانه (و لا أقول لكم عندي خزائن الله و لا أعلم الغيب و لا أقول إني ملك و لا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً ، الله أعلم بما في أنفسهم إني إذاً لمن الظالمين)[٢]، أي (لا أقول لكم عندي خزائن الله فأدعي فضلاً عليكم في الغنى... و لا أدعي علم الغيب حتى تنسبوني الى الكذب والافتراء، أو حتى أطلع على ما في نفوس أتباعي و ضمائر قلوبهم (و لا أقول إني ملك) حتى تقولوا لي ما أنت إلا بشرٌ مثلنا ، و لا أحكم على من استرذلتم من المؤمنين لفقرهم أن الله لن يؤتيهم خيراً في الدنيا و الاخرة لهوانهم عليه (إني إذاً لمن الظالمين) إن قلت شيئاً من ذلك، والازدراء : افتعال من زرى عليه إذا عابه)[٣]، فكان هذا الرد حاسماً على الكافرين الذين حاولوا إحداث شرخ بين نوح و بين المؤمنين ، و أنّى لهم ذلك، وهم يتعاملون مع نبي الله وليس مع رجل يريد الدنيا و زخارفها .

المطلب الثاني : ترغيبهم بالايمان ، و تحديهم له :

استمر نوح بدعوته قومه الى الايمان ، و ترغيبهم به ، و كما قال تعالى (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، و يمددكم بأموال و بنين ويجعل لكم جنات و يجعل لكم أنهاراً)[٤] ،و المعنى (سلوا ربكم غفران ذنوبكم ، و توبوا إليه من كفركم ، و عبادة ما سواه من الالهة ووحدوه ، و أخلصوا له العبادة ، يغفر لكم ، إنه كان غفاراً لذنوب من أناب إليه ، و تاب إليه من ذنوبه ... يسقيكم ربكم إن تبتم و وحدتموه وأخلصتم له العبادة، الغيث ، فيرسل به السماء عليكم مدراراً متتابعاً، ويعطكم مع ذلك ربكم أموالاً و بنين ، فيكثّرها عندكم ، و يزيد فيما عندكم منها (و يجعل لكم جنات) يقول: يرزقكم بساتين (و يجعل لكم

---

[١] سورة الشعراء الاية (١٠٩) .

[٢] سورة هود الاية (٣١) .

[٣] الكشاف / الزمخشري (٢ /٣٩٠) .

[٤] سورة نوح الايات (١٠ – ١٢) .

أنهاراً) تسقون منها جناتكم و مزارعكم)[١]، فهذه الايات تشير الى أن قومه أُصيبوا بالقحط عقاباً لهم على كفرهم لعلهم يرتدعون عن غيهم ، و يثوبون إلى رشدهم ، و مع هذا فإن قلوبهم القاسية أبت عليهم الاستجابة لدعوته على الرغم من الضر الذي أصابهم ، لاعتقادهم بأنهم يُسقون بالهتهم التي يعبدونها ، فلا حاجة لهم بنوح و دعوته ، لذا فإن نوحاً (عليه السلام) قال لهم (ما لكم لا ترجون لله وقاراً ، و قد خلقكم أطواراً)[٢]، والمعنى (لا تعظمون الله حق عظمته ، أي لا تخافون من بأسه ونقمته)[٣] ، و معنى (و قد خلقكم أطواراً) (أي تارات: خلقكم أولاً تراباً ، ثم خلقكم نطفاً ، ثم خلقكم علقاً، ثم خلقكم مضغاً ، ثم خلقكم عظاماً و لحماً ، ثم أنشأكم خلقاً اخر)[٤] بنفخ الروح فيكم ، و كما قال تعالى (و لقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً اخر فتبارك الله أحسن الخالقين)[٥] .

ثمّ إن المشركين قالوا له :لقد طالت دعوتك و تهديدك لنا ، و على الرغم من مرور زمن طويل على تهديدك ، و لكن الى الآن لم نرَ الغضب نزل علينا ، فإن كنت صادقاً في قولك ، فأنزل العذاب الذي تتوعدنا به ، و كما قال سبحانه (قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين)[٦]، (أي خاصمتنا فأكثرت خصومتنا ، و بالغت فيها ، والجدل في كلام العرب : المبالغة في الخصومة ، مشتق من الجَدْل ، و هو شدة الفتْل ... والجَدَل في الدين محمود ، و لهذا جادل نوحٌ و الأنبياءُ قومَهم حتى يظهر الحق ، فمن قبله أنجح و أفلح ، و من ردّه خاب و خسر ، و أما الجدال لغير الحق حتى يظهر الباطل في صورة الحق فمذموم ، و صاحبه في الدارين ملوم ، (فأتنا بما تعدنا) أي من العذاب (إن كنت من الصادقين) في قولك)[٧].

فأجابهم بأن واجبه كرسول يقتضي عليه تبليغ الدعوة فقط ، أما إنزال العذاب بهم فمتروك الى الله تعالى ، فإن نزل عذابه فلن يستطيعوا رده ، و كما قال سبحانه (قال إنما يأتيكم به الله إن شاء و ما أنتم بمعجزين ، و لا ينفعكم نُصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله

---

[١] جامع البيان / الطبري (٢٩ /٩٩ –١٠٠) .
[٢] سورة نوح الايتان (١٣ ، ١٤) .
[٣] تفسير القران العظيم / أبن كثير (٤ /٤٢٦) .
[٤] الكشاف / الزمخشري (٤ / ٦١٨) .
[٥] سورة المؤمنون الايات (١٢ –١٤) .
[٦] سورة هود الاية (٣٢) .
[٧] الجامع لاحكام القران / القرطبي (٩ / ٢٧–٢٨) .

يريد أن يُغويكم هو ربكم و إليه تُرجعون)[١]، أي (يا قوم ليس الذي تستعجلون من العذاب إليّ ، إنما ذلك إلى الله لا إلى غيره ، هو الذي يأتيكم به إن شاء ... و لستم إذا أراد تعذيبكم بمعجزيه ، أي بفائتيه هرباً منه ، لأنكم حيث كنتم في ملكه و سلطانه و قدرته ، حُكمُهُ عليكم جار... و لا ينفعكم تحذيري عقوبته و نزول سطوته بكم على كفركم به ..لأن نصحي لا ينفعكم لأنكم لا تقبلونه... إن كان الله يريد أن يهلككم بعذابه (هو ربكم و إليه ترجعون) يقول: وإليه تردون بعد الهلاك)[٢].

ثُمّ إنّ قومه توعدوه بالأذى إن بقي مصراً على دعوته و كما قال تعالى (قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكوننّ من المرجومين)[٣]، (أي لئن لم تنته من دعوتك إيانا إلى دينك)[٤]، و قد اختلف المفسرون في معنى (من المرجومين) على أقوال ، فقيل (المعنى أنهم خوفوه بأن يُقتل بالحجارة)[٥]، و قيل (لتكوننّ من المشتومين)[٦]، ونستبعد الرأي الثاني لأن شتمه لن يثنيه عن مواصلة دعوته ، كما أن قوم نوح شتموه من قبل حينما اتهموه بالضلال تارة ، وبالجنون أُخرى ، لذا نرجح أن يكون المقصود بذلك تهديده بالقتل بالحجارة ، حيث أنهم انتقلوا من شتمه و الانتقاص منه و من أتباعه إلى تهديده بضربه بالحجارة حتى الموت، فيتخلصوا بذلك منه نهائياً .

و بعد أن سمع نوح تهديدهم قال لهم إذا كنتم سئمتم دعوتي ، و نفرتم مني ، فإني متوكل على ربي، مُسلمٌ أمري له ، فاجمعوا ما تستطيعون جمعه من أعوانكم و شركائكم والهتكم المزعومة ، و اتفقوا على أمر واحد ، و لتعلموا بأني لن أخشاكم لأني أعلم ضعفكم ، وكما قال تعالى (و اتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كَبُر عليكم مقامي وتذكيري بأيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم و شركائكم ثمّ لا يكن أمركم عليكم غُمةً ثمّ اقضوا إليّ و لا تنظرون)[٧]، أي (عظم عليكم و شق ... إقامتي بينكم مدة مديدة، وتذكيري إياكم بايات الله)[٨] ،(و عزمتم على قتلي و طردي (فعلى الله توكلت) أي اعتمدت ، و هذا هو جواب الشرط ، و لم يزل عليه السلام متوكلاً على الله في كل حال ، و لكن بيّن أنه متوكل في هذا على

---

[١] سورة هود الايتان (٣٣ ، ٣٤) .
[٢] جامع البيان / الطبري (١٢ / ٣٧ –٣٨) .
[٣] سورة الشعراء الاية (١١٦) .
[٤] تفسير القران العظيم / إبن كثير (٣ / ٣٤٨) .
[٥] التفسير الكبير / الفخر الرازي (٨ /٥٢١) .
[٦] جامع البيان / الطبري (١٩ / ٩٩) .
[٧] سورة يونس الاية (٧١) .
[٨] أنوار التنزيل / البيضاوي (٣ / ١١٩) .

الخصوص ، ليعرف قومه أن الله يكفيه أمرهم)[١]، لذا (فإني لا أُبالي و لا أكف عنكم ، سواءً عظُم عليكم أو لا ،... فاجتمعوا أنتم و شركاؤكم الذين تدعون من دون الله من صنم و وثن ،... و لا تجعلوا أمركم عليكم ملتبساً ، بل افصلوا حالكم معي ، فإن كنتم تزعمون أنكم محقون فاقضوا إليّ (و لا تُنظرون) أي و لا تؤخروني ساعة واحدة ، أي مهما قدرتم فافعلوا ، فإني لا أُباليكم ، و لا أخاف منكم لأنكم لستم على شيْ)[٢]، و هكذا تحداهم هذا (التحدي الصريح المثير ، الذي لا يقوله القائل إلا و هو ماليْ يديه من قوته ، واثق كل الوثوق من عدّته ، حتى ليغري خصومه بنفسه ، و يحرضهم بمثيرات القول على أن يهاجموه، فماذا كان وراء نوح من القوة و العدة ؟ و ماذا كان معه من قوى الأرض جميعاً ؟ كان معه الايمان ، القوة التي تتصاغر أمامها القوى ، و تتضاءل أمامها الكثرة ، و يعجز أمامها التدبير ، كان وراءه الله الذي لا يدع أولياءه لأولياء الشيطان)[٣] ، فماذا كان من قومه؟ هل استطاعوا فعل شيء ضده ؟ الجواب أنهم لم يستطيعوا فعل أي شيْ لأن الله حفظ نبيه و عصمه من شرهم ، وألقى الرعب في نفوسهم ،فاكتفوا بتكذيبه والتواصي بذلك ، دون أن يفكروا بالأيمان به ، و تصديقه .

المطلب الثالث : دعاؤه على قومه :

استمر نوح يدعو قومه إلى الله ، ليل نهار ، صباح مساء ، دون كلل أو ملل، واستخدم في دعوته اسلوب الدعوة السرية و العلنية ،و مع هذا فإن غالبية قومه أصروا على تكذيبه ، و الفرار من دعوته ، فلم يؤمن به إلا نفرٌ قليل منهم ، (حتى إذا تمادوا في المعصية ، و اشتد عليه منهم البلاء ، و انتظر الجيل بعد الجيل ، فلا يأتي قرن إلا كان أخبث من الذي قبله، حتى إن كان الآخر منهم ليقول : قد كان هذا مع ابائنا وأجدادنا هكذا مجنوناً، لايقبلون منه شيئاً ، فشكا الى الله تعالى)[٤]فقال (ربي إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ، فلم يزدهم دعاءي إلا فراراً ، و إني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في أذانهم و استغشوا ثيابهم و أصروا و استكبروا استكباراً ، ثم إني دعوتهم جهاراً، ثم إني أعلنت لهم و أسررت لهم إسراراً فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً)[٥]، و لكنهم على العكس من ذلك (أعرضوا عن الايمان ، و تمادوا على العصيان و عبادة الاوثان)[٦]، فأوحى الله له أنك مهما دعوتهم فلن يؤمن بك احدٌ اخر ، و كما قال سبحانه

---

[١] الجامع لاحكام القران / القرطبي (٨ /٣٦٢) .

[٢] تفسير القران العظيم / إبن كثير (٢ / ٤٢٤) .

[٣] في ظلال القران / سيد قطب (٣ / ١٨١١) .

[٤] تأريخ الرسل و الملوك / الطبري (١ / ١٨٢) و الكامل في التأريخ / إبن ألأثير (١ / ٦٨) .

[٥] سورة نوح الايات (٥ –١٠) .

[٦] محاسن التأويل / القاسمي (٣ / ٥٧٩) .

(وأوحي الى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد امن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون)[١]، (فالقلوب المستعدة للايمان قد امنت ، أما البقية فليس فيها استعداد و لا اتجاه ، هكذا أوحى الله الى نوح ، و هو اعلم بعباده ، واعلم بالممكن والممتنع ، فلم يبق مجال للمضي في دعوت لا تفيد)[٢] (فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) (والمعنى فلا تحزن بما فعلوه من تكذيبك و ايذائك و معاداتك ، فقد حان وقت الانتقام لك منهم)[٣]، و قيل (أي فلا تغتم بهلاكهم حتى تكون بائساً أي حزيناً)[٤]، و نرجح الرأي الاول لأن الله قال له : فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ، و لم يقل له فلا تبتئس بما سنفعله بهم ، هذا من ناحية ، و من ناحية أُخرى فكيف يحزن على إهلاكهم و هو الذي سيدعو عليهم ؟ و الله أعلم.

عند ذلك رفع نوح يديه متوجهاً بالدعاء الى ربه بأن يسلط العذاب عليهم ، فيهلكهم جميعاً بسبب كفرهم و تكذيبهم له ، و كما قال تعالى (و قال نوح ربّ لا تذر على الارض من الكافرين ديّاراً ، إنك إن تذرهم يُضلوا عبادك و لا يلدوا إلا فاجراً كفّاراً)[٥]، (أي إنك إن أبقيت منهم احداً أضلوا عبادك ، أي الذين تخلقهم بعدهم)[٦] ، قال الفخر الرازي (فإن قيل كيف عرف نوح (عليه السلام) ذلك ؟ قلنا للنص و الاستقراء ، أما النص فقوله تعالى (انه لن يؤمن من قومك إلا من قد امن...)[٧]، و أما الاستقراء فهو أنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فعرف طباعهم و جرّبهم ، و كان الرجل منهم ينطلق بابنه إليه و يقول : احذر هذا فإنه كذاب ، و إن أبي أوصاني بمثل هذه الوصية ، فيموت الكبير و ينشأ الصغير على ذلك، وقوله (ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) فيه وجهان : احدهما : أنهم يكونون في علمك كذلك، والثاني: أنهم سيصيرون كذلك)[٨]، و هو ما نرجحه ،لأن الله أعلمه بعدم ايمان احد منهم، والله أعلم .

و قد اختلف المفسرون في دعاء نوح على قومه،هل كان قبل إعلام الله له بعدم إيمانهم أم بعده ؟على رأيين :

<u>الاول</u> : (أوحى الله ذلك إليه بعدما دعا عليهم نوح بالهلاك)[٩] .

---

[١] سورة هود الاية (٣٦) .
[٢] في ظلال القران / سيد قطب (٤ / ١٨٧٦) .
[٣] الكشاف / الزمخشري (٢ / ٣٩٢) .
[٤] الجامع لاحكام القران / القرطبي (٩ / ٢٩) .
[٥] سورة نوح الايتان (٢٦ ، ٢٧) .
[٦] تفسير القران العظيم / إبن كثير (٤/ ٤٢٨) .
[٧] سورة هود الاية (٣٦) .
[٨] التفسير الكبير / الفخر الرازي (١٠ /٦٥٩) .
[٩] جامع البيان / الطبري (١٢ / ٣٨) .

الثاني : أنه (دعا عليهم لما أُخبر بهذا ، فقال (رب لا تذر...))[١]، و هو ما نرجحه ، لأن نوحاً (عليه السلام) كان لا يزال يأمل في ايمان قومه لذا لم يدعُ عليهم ، فلما يأس من ايمانهم بعد وحي الله له عند ذلك دعا عليهم .

و هكذا استحق قوم نوح أن يدعو نبيهم عليهم لتجاوزهم حدود الله تعالى ، و اصرارهم على الكفر، ولم تبقَ إلا ساعة الانتقام .

المبحث الثالث :صناعة السفينة و حدوث الطوفان :

المطلب الاول : صناعة السفينة :

استجاب الله دعاء نبيه نوح في اهلاك القوم الكافرين ، و كما قال سبحانه (و لقد نادانا نوح فلنعم المجيبون)[٢]، فأمره بصناعة السفينة و كما قال تعالى (و اصنع الفلك بأعيننا و وحينا و لا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مُغرقون)[٣]، و الفلك (السفينة... و ذلك أنه لم يعلم كيف صنعة الفلك ، فأوحى الله إليه أن يصنعها على مثل جؤجؤ الطائر[٤])[٥]، وقوله (و لا تخاطبني في الذين ظلموا..) (فيه وجوه : الاول: يعني لا تطلب مني تأخير العذاب عنهم ، فإني قد حكمت عليهم بهذا الحكم...، الثاني :(و لا تخاطبني) في تعجيل ذلك العقاب على الذين ظلموا...، الثالث : المراد بالذين ظلموا امرأته و ابنه كنعان)[٦]، ونرى أن المقصود بذلك أي ظالم من الظالمين ، سواءً أكانت امرأته أم ابنه ، و نستبعد أن الله تعالى حدّد له أن المقصود بذلك ابنه ، لانه لو ذكره له ، لما راجع نوح ربه بشأن ابنه بعد نهاية الطوفان، و الله أعلم .

والسفينة في حد ذاتها لا تستطيع انقاذ المؤمنين ، و لكن ارادها الله تعالى أن تكون سبباً في انقاذهم لنتعلم أمراً مهماً ألا و هو أن اتخاذ الاسباب لا يتعارض مع التوكل .

فبدأ نوح بصناعتها امتثالاً لأمر الله ، و كلما مر عليه جماعة من قومه استهزأوا به ، وكما قال تعالى (و يصنع الفلك و كلما مر عليه ملأٌ من قومه سخروا منه ، قال إن تسخروا منّا فإنّا نسخر منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه و يحل عليه عذاب مقيم)[٧]، و قيل ان سبب سخريتهم لأنه (كان يعملها في برية بهماء في أبعد موضع من الماء

---

[١] الجامع لاحكام القران / القرطبي (٩ / ٢٩) .

[٢] سورة الصافات الاية (٧٥) .

[٣] سورة هود الاية (٣٧) .

[٤] أي صدره ، راجع القاموس المحيط/ الفيروز آبادي ، باب الهمزة فصل الجيم (٤٧) .

[٥] جامع البيان / الطبري (١٢ / ٤٠) .

[٦] التفسير الكبير / الفخر الرازي (٦ /٣٤٥) .

[٧] سورة هود الايتان (٣٨ ، ٣٩) .

، وفي وقت عزّ الماء فيه عزة شديدة ، فكانوا يتضاحكون و يقولون له : يا نوح ، صرت نجاراً بعدما كنت نبياً)[١]، و قيل (لما رأوه يبني السفينة ، و لم يشاهدوا قبلها سفينة بنيت قالوا : يا نوح ما تصنع ؟ قال أبني بيتاً يمشي على الماء ، فعجبوا من قوله و سخروا منه)[٢]، والذي نراه أنهم استهزأوا به لاستبعادهم وقوع العذاب عليهم ، فكانوا يعتبرون صنعه للسفينة سَفَهَاً ، و موضوعاً للضحك ،فرد عليهم قائلاً(إن تسخروا منّا في هذه الساعة فإنّا نسخر منكم سخريةً مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق في الدنيا،و الخزي في الاخرة)[٣]، (فسوف تعلمون أيها القوم إذا جاء أمر الله مَن الهالك... الذي يأتيه عذاب الله... و ينزل به في الاخرة عذاب دائم لا انقطاع له ، مقيم عليه أبداً)[٤]، و هكذا فإن نوحاً لم يلتفت الى سخريتهم لوثوقه بوعد الله له .

و قد ذكر الله تعالى المادة التي صُنعت منها هذه السفينة ، و كما قال سبحانه (وحملناه على ذات ألواحٍ و دُسر)[٥]، و الألواح معروفة ، و هي من الخشب ، أما الدسر فعلى أصح الاقوال هو (جمع دسار: و هو المسمار ، فعال من دسره إذا دفعه ، لأنه يدسر به منفذه)[٦]، والله أعلم .

أما بالنسبة لحجم السفينة فقد اختلف العلماء (في هيئتها من التربيع و الطول ، و في مقدار مدة عملها، و في المكان الذي عُملت فيه ، و مقدار طولها و عرضها ، على أقوال متعارضة لم يصح منها شيْ)[٧]، لأن تلك الاقوال لا تستند الى أي دليل من القران الكريم أو من الاحاديث النبوية الصحيحة و الصريحة ، والمهم في الامر هو أن نوحاً (عليه السلام) انجز عمله في الوقت الذي حدده الله له ، و بالكيفية التي أرادها سبحانه .

أما وظيفة هذه السفينة فهي لحمل نوح و اهله إلا من كفر منهم ، و لحمل المؤمنين ، ولحمل زوجين اثنين من كل صنفٍ من اصناف الحيوانات ، و كما قال تعالى (حتى إذا جاء أمرُنا و فار التنور قلنا احمل فيها من كلٍ زوجين اثنين و أهلك إلا من سبق عليه القول و من امن ، و ما امن معه إلا قليل)[٨].

---

[١] الكشاف / الزمخشري (٢ /٣٩٣) .
[٢] الجامع لاحكام القران / القرطبي (٩ / ٣٢ –٣٣) .
[٣] التفسير الكبير / الفخر الرازي (٦ / ٣٤٦) .
[٤] جامع البيان / الطبري (١٢ / ٤٥) .
[٥] سورة القمر الاية (١٣) .
[٦] الكشاف / الزمخشري (٤ /٤٣٥) .
[٧] البحر المحيط / أبو حيان (٥ / ٢٢١) .
[٨] سورة هود الاية (٤٠) .

المطلب الثاني : بداية الطوفان :

لما حان موعد إنزال الغضب بهم ، و (فار التنور) و المراد به (وجه الارض ، أي صارت الارض عيوناً تفور حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار ... وهذا قول جمهور السلف و علماء الخلف ... فحينئذٍ أمر الله نوحاً (عليه السلام)أن يحمل معه في السفينة من كلٍ زوجين اثنين من صنوف المخلوقات ذوات الارواح ، قيل و غيرها من النباتات ذكراً و أُنثى)[١]، و هو ما نستبعده ، لأن بذور النباتات من الممكن ان تنمو ثانية ، وإن غطها الماء ، و لكن (كيف جُمعت الحيوانات على تفرقها في أكناف الارض ؟ فقيل انها أحست بالعذاب فاجتمعت ، و عن الزهري أن الله تعالى بعث ريحاً فحمل اليه من كل زوجين اثنين من الطير و السباع و الوحش ،و عن جعفر بن محمد أن الله تعالى بعث جبريل (عليه السلام) فجعل (عليه السلام) يضرب بيديه على الزوجين فتقع يده اليمنى على الذكر، واليسرى على الانثى فيدخلهما السفينة حتى أدخل عدة ما أمر الله تعالى به)[٢]، و الذي نراه أن جمعها كان بقدرة الله سواءً عن طريق جبريل أم عن طريق الريح أم عن طريق الالهام الغريزي ، وكما قال تعالى عن النحل (وأوحى ربك الى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتاً و من الشجر ومما يعرشون)[٣]، و كذلك فإن الله تعالى أوقف غرائزها فلم يهجم ألاسد على النعجة ليأكلها، ولم يطأ الفيل النملة بقدمه ، و هكذا ، وهذا من مظاهر قدرة الله تعالى .

و هنا سؤال يطرح نفسه و هو : هل كان في السفينة الحيوانات المائية أيضاً ؟ والجواب هو ليس هناك في القران و لا في السنة نص صريح يدل على حملها أو عدمه ، لذا فإننا نرجح عدم حمله لها ، لأنها مُكيفة للعيش في الماء ، فالأمر كان بحمل الحيوانات البرية دون المائية ، و الله أعلم .

و بالنسبة لأبليس ، هل كان في السفينة أم لا ؟ و الجواب : أن ظاهر الايات القرانية لا يشير الى صعوده الى السفينة ، لأنه ليس من المؤمنين بل إنه أساس الكفر ، و ليس من الحيوانات فكيف يصعد إليها ؟ ثُمّ أن أبليس ليس بحاجة الى صعود السفينة لينجو من الغرق، لأن الله وعده بتأخير العذاب عنه و إلى يوم القيامة ، و كما قال سبحانه (قال أنظرني إلى يوم يُبعثون ، قال إنك من المنظرين)[٤]، و هو ما نرجحه ، والله أعلم .

أما ما قيل من أنه (اخر من أُدخل من الحيوانات الحمار ، فتعلق إبليس بذنبه ، وجعل يريد أن ينهض فيثقله إبليس و هو متعلق بذنبه ، فجعل يقول نوح : مالك ويحك ادخل ، فينهض

---

[١] تفسير القران العظيم / ابن كثير (٢ / ٤٤٥) .

[٢] روح المعاني / الالوسي (١٢ / ٣٥٣) .

[٣] سورة النحل الاية (٦٨) .

[٤] سورة الاعراف الايتان (١٣ ، ١٤) .

و لايقدر ، فقال أدخل و إن كان إبليس معك فدخلا في السفينة)[١] ، فمجرد قول لا يستند إلى أي دليل . (وقد اختلف العلماء في عدة من كان معه في السفينة : فعن ابن عباس: كانوا ثمانين نفساً ، معهم نساؤهم ، و عن كعب الاحبار : كانوا اثنين و سبعين نفساً ، و قيل كانوا عشرة ، و قيل إنما كانوا نوحاً و بنيه الثلاثة ، و كنائنه الاربع بامرأة (يام) الذي انخذل و انعزل عن طريق النجاة... و هذا القول فيه مخالفة لظاهر الاية، بل هي نص في أنه قد ركب معه غير أهله طائفة ممن امن به ، كما قال (و نجني و من معي من المؤمنين)[٢]، و قيل كانوا سبعة)[٣]، و هذه كلها أقوال غير ثابتة لذا لن نعتمد على أي منها ، و نكتفي بما ورد في القران من انقاذ المؤمنين دون ذكر عددهم ، و عدم معرفتنا بعددهم لا يؤثر في العبر المأخوذة من القصة ، فإذن لم تكن زوجة نوح و لا ابنه يام (كنعان) ضمن رُكّاب السفينة لكفرهم بالله تعالى .[٤]

وعندما اكتمل عدد مَن يستحق الصعود عليها عند ذلك أمرهم نوح بالركوب ، و كما قال سبحانه (وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها و مُرساها إنّ ربي لغفورٌ رحيم)[٥]، حيث (ذكر الله تعالى في هذه الاية الكريمة : أن نبيه نوحاً (عليه و على نبينا الصلاة و السلام) أمر أصحابه الذين قيل له احملهم فيها ، أن يركبوا فيها قائلاً (بسم الله مجريها و مرساها) (أي بسم الله يكون جريها على وجه الماء ، و بسم الله يكون منتهى سيرها ، و هو رُسوّها، وبيّن في سورة المؤمنون : أنه امره إذا استوى على السفينة هو و مَن معه أن يحمدوا الله الذي نجّاهم من الكفرة الظالمين ، و يسألوه أن يُنزلهم منزلاً مباركاً ، و ذلك في قوله (فإذا استويت أنت و مَن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين)[٦])[٧].

وأمر الله تعالى السماء بأن تمطر بغزارة ، و أمر الارض بأن تتفجر عيوناً ، و كما قال تعالى (ففتحنا أبواب السماء بماءٍ منهمر ، و فجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمرٍ قد قُدر)[٨]، (و هي حركة ضخمة غامرة تصورها ألفاظ و عبارات مختارة ، تبدأ بإسناد الفعل الى الله مباشرة : (ففتحنا) فيحس القارئ يد الجبار تفتح أبواب السماء)[٩] (بماء منهمر) (أي كثير،...

---

[١] تفسير القران العظيم / إبن كثير (٢ / ٤٤٥) .
[٢] سورة الشعراء الاية (١١٨) .
[٣] البداية و النهاية / ابن كثير (١ / ١٥٥) .
[٤] راجع موضوع أسمه و نسبه و عائلته ص ٣ .
[٥] سورة هود الاية (٤١) .
[٦] الاية (٢٨) .
[٧] اضواء البيان / محمد الأمين الشنقيطي (٢ /١٧) .
[٨] سورة القمر الايتان (١١ ، ١٢) .
[٩] في ظلال القران / سيد قطب (٦ / ٣٤٣٠) .

و قيل : إنه المنصب المتدفق)[١]، و يمكن الجمع بينهما بالقول أنه كان كثيراً لأنه كان منصباً متدفقاً .

وقوله (وفجرنا الارض عيوناً) أي (جعلنا الارض كلها كأنها عيون تتفجر ، و هو أبلغ من قولك: وفجرنا عيون الارض)[٢]، و قوله (فالتقى الماء) أي (ماء السماء و ماء الارض ... و الالتقاء لا يكون من واحد ، و إنما يكون من اثنين فصاعداً ، لأن الماء قد يكون جمعاً و واحداً ، و أُريد به في هذا الموضع : مياه السماء و مياه الارض ، فخرج بلفظ الواحد و معناه الجمع ... (على أمر قد قُدر) لأن ذلك كان أمراً قد قضاه الله في اللوح المحفوظ)[٣]، و في هذه الاية مسألتان :

(**المسألة الاولى**: قال في السماء (ففتحنا أبواب السماء) ، لأن السماء ذات الرجع و ما لها من فطور، ولم يقل وشققنا السماء، وقال في الارض (وفجرنا الارض) لأنها ذات الصدع .

الثانية : لما جعل المطر كالماء الخارج من أبواب مفتوحة واسعة ، و لم يقل في الارض: وأجرينا من الارض بحاراً و أنهاراً ، بل قال (عيوناً) و الخارج من العين دون الخارج من الباب ذكر في الارض أنه تعالى فجرها كلها ، فقال (و فجرنا الارض)لتقابل كثرة عيون الارض سعة أبواب السماء فيحصل بالكثرة ها هنا ما حصل بالسعة ها هنا)[٤].

وهكذا ابتدأ الطوفان ، و ابتدأت السفينة بالجريان ، وأبصر نوح (عليه السلام) ابنه يام (كنعان) وكان في مكانٍ منعزلٍ ، فطلب منه الايمان به ليتسنّى له الصعود الى السفينة مع المؤمنين ، و لكنه رفض ذلك ، لاعتقاده بأن هذا الطوفان ليس غضباً من الله ، و إنما ظاهرة طبيعية لا خوف منها ، و كل ذلك بسبب كفره برسالة ابيه (عليه السلام)، و كما قال تعالى (وهي تجري بهم في موجٍ كالجبال ، و نادى نوحٌ ابنه وكان في معزلٍ ، يا بُنيّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين)[٥]، أي أنّ (السفينة سائرة بهم على وجه الماء الذي قد طبق جميع الارض...بإذن الله و تحت كنفه و عنايته و حراسته ... (و نادى نوحٌ ابنه) هذا هو الابن الرابع و اسمه (يام)، و كان كافراً ، دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن و يركب معهم ولا يغرق مثل ما يغرق الكافرون)[٦].

---

[١] الجامع لاحكام القران / القرطبي (١٧ / ١٣١-١٣٢) .
[٢] الكشاف / الزمخشري (٤ / ٤٣٤) .
[٣] جامع البيان / الطبري (٢٧ / ١٠٨) .
[٤] مفاتيح الغيب / الفخر الرازي (١٠ / ٢٩٥) .
[٥] سورة هود الاية (٤٢) .
[٦] تفسير القران العظيم / ابن كثير (٢ / ٤٤٦) .

و قوله (و كان في معزل) : (لا يدل على أنه في معزل من أي شيء ، فلهذا السبب ذكروا وجوهاً: الاول : أنه كان في معزل من السفينة لأنه كان يظن أن الجبل يمنعه من الغرق ، الثاني : أنه كان في معزل عن أبيه و اخوته و قومه ، الثالث : أنه كان في معزلٍ من الكفار ، كأنه انفرد عنهم فظن نوح (عليه السلام) أن ذلك إنما كان لأنه أحب مفارقتهم)[١]، و الذي نراه أنه كان في مكانٍ منعزلٍ عن السفينة ، و يراقب ما يجري عن بُعدٍ، و هذا يعني أنه كان بعيداً عن أبيه و اخوته ، لذا فإن نوحاً عندما رآه ناداه ، و المناداة تقتضي أن تكون المسافة بعيدةً ما بين المنادي و المنادى ، و لكنه رفض هذه الدعوة ، و كما قال سبحانه (قال سأوي الى جبلٍ يعصمني من الماء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا مَن رحم، و حال بينهما الموج فكان من المغرقين)[٢]، حيث (اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال ، و أنه لو تعلق في رأس جبلٍ لنجّاه ذلك من الغرق)[٣]، فقال الوالد مجيباً ولده (لا مانع اليوم من أمر الله الذي قد نزل بالخلق من الغرق و الهلاك إلا من رحمنا)[٤]، والذين منع الله عنهم الغرق هم أهل السفينة بمن فيها من المؤمنين و غيرهم ، و في هذه الأثناء جاءت الأمواج العاتية فحالت بينهما ، فغرق الابن لكفره ، و نجا الأب بمن معه.

و لكن متى حدثت هذه المحاورة ، هل قبل الصعود إلى السفينة أم بعدها ؟ هناك مَن يرى أنّ هذه المحاورة جرت (قبل أن تنقطع العلاقة بين السفينة و البر إذ حينئذٍ يمكن جريان ما جرى بين نوح (عليه السلام) و بين ابنه من المفاوضة و الاستدعاء إلى السفينة ، والجواب بالاعتصام بالجبل ، و قال بعض المحققين : إنّ هذا النداء إنما كان قبل الركوب في السفينة، والواو لا تدل على الترتيب)[٥] ، و هناك مَن يفسر الاية على ظاهرها فيقول (وفي هذه اللحظة الرهيبة الحاسمة يبصر نوح ، فإذا أحد أبنائه في معزلٍ عنهم ، و ليس معهم، وتستيقظ في كيانه الأبوة الملهوفة ، و يروح يهتف بالولد الشارد : يا بني اركب معنا...)[٦]، وهناك مَن يرى أن ذلك كان (قبل أن يغمر الطوفانُ الجبالَ)[٧]، و إكمالاً لهذا الرأي نقول: أن ذلك كان بعد الصعود الى السفينة ، و قبل أن يغمر الطوفانُ الجبالَ ، و يمكن تصوّر هذا الموقف بالقول : أن نوحاً مع أبنائه و بقية أهله و المؤمنين ، عندما ذهبوا الى السفينة للصعود عليها فإن ابنه (يام)

---

[١] مفاتيح الغيب / الفخر الرازي (٦ / ٣٥١) .
[٢] سورة هود الاية (٤٣) .
[٣] تفسير القران العظيم / ابن كثير (٢ / ٤٤٦) .
[٤] جامع البيان / الطبري (١٢ / ٥٣) .
[٥] روح المعاني / الالوسي (١٢ / ٣٥٨) .
[٦] في ظلال القران / سيد قطب (٤ / ١٨٧٨) .
[٧] الكشاف / الزمخشري (٢ / ٣٩٦) .

تبعهم خفية دون أن يروه لعله يريد القاء نظرة أخيرة عليهم ، فلما صعدوا جميعاً و بدأت السفينة بالإبحار بعد أن بدأ الطوفان عند ذلك أظهر الإبن نفسَه ، وكان في مكان بعيدٍ عنهم ، فلما أبصره والده ناداه بصوت عالٍ مرتفعٍ لعله يسمعه ، و دعاه إلى الايمان ليكون ذلك سبباً في صعوده الى السفينة و نجاته من الغرق ، خصوصاً و أن الابن رأى بعينيه أن ما توعّد به والده قومَه قد تحقق ، غير أن الابن أصر على الكفر، معتقداً أن هذا ليس غضباً من الله ، و إنما فيضانٌ لن يُميت أحداً ، و إن اشتد و أصبح خطراً فمن الممكن تلافيه بالصعود إلى اعالي الجبال ، لأن الفيضان لن يصل إليها ، و أمام هذا الانكار والكفر الصريح جاء الموج ليكون سبباً في غرق الابن مع الكافرين، أما السفينة فلا خطر عليها من هذه الامواج لأنها محفوظة بحفظ الله تعالى لها .

المطلب الثالث : نهاية الطوفان :

بعد أن غرق الكافرون ، أمر الله تعالى الأرض بأن تبتلع ما أخرجته من المياه و ما نزل من السماء اثناء الطوفان ، لتعود المياه على سطح الأرض الى مستواها ، و كما قال سبحانه (و قيل يا أرضُ ابلعي ماءك و يا سماء أقلعي ، و غيض الماء ، و قضي الأمر واستوت على الجودي و قيل بُعداً للقوم الظالمين)[١]، و هذا نداءٌ (على لفظ التخصيص والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات ، و هو قوله (يا أرض) ، (و يا سماء) ثمّ أمرهما بما يُؤمر به أهل التمييز و العقل من قوله(ابلعي ماءك) و(أقلعي) من الدلالة على الاقتدار العظيم ، و أن السموات و الارض و هذه الأجرام العظام منقادة ... غير ممتنعة عليه ، و البلع : عبارة عن النشف ، و الإقلاع : الإمساك ، يقال : أقلع المطر و أقلعت الحُمّى (وغيض الماء) من غاضه إذا نقصه (و قُضي الامر) و أنجز ما وعد نوحاً من هلاك قومه (واستوت) واستقرت السفينة (على الجودي) و هو جبل بالموصل (و قيل بُعداً)...إذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك و الموت ، و نحو ذلك ، و لذلك اختص بدعاء السوء ، ومجيء اخباره على الفعل المبني للمفعول للدلالة على الجلال و الكبرياء ، و أن تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر...، و أن فاعلها فاعل واحد لا يُشارَك في أفعاله)[٢]، وهكذا توقف الطوفان بعد أن تحقق المراد ، و استقرت السفينة على قمة جبلٍ مرتفع ، وهو جبل الجودي ، و كما صرح بذلك القران الكريم ، و لكن القران لم يصرح بمكان وجود هذا الجبل ، و لكن كثيراً من العلماء قالوا أنه بالقرب من الموصل ، و هو ما أخذنا به ، و على العموم فعدم تحديد مكان الجبل على وجه الدقة لا يؤثر على العبر المأخوذة من القصة، لذا لم يحدد لنا القران مكانه ،و الله أعلم .

و قبل أن ينزل نوح من السفينة فإنه حدثت محاورة بين نوح و بين الله تعالى بشأن ابنه الذي مات في الطوفان ، و كما قال سبحانه (و نادى نوح ربَه فقال ربّ إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق و أنت أحكم الحاكمين ، قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عملٌ غيرُ صالحٍ فلا تسألن ما ليس لك به علمٌ إني أعظك أن تكون من الجاهلين)[٣]، و (هذا سؤال استعلام وكَشف من نوح (عليه السلام) عن حال ولده الذي غرق (فقال ربي إن ابني من اهلي) أي وقد

---

[١] سورة هود الاية (٤٤) .

[٢] الكشاف / الزمخشري (٢ / ٣٩٧-٣٩٨) .

[٣] سورة هود الايتان (٤٥ ، ٤٦) .

وعدتني بنجاة أهلي و وعدك الحق الذي لا يُخلف ، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين ؟ (قال يا نوح إنه ليس من اهلك) أي الذين وعدت انجاءهم ، لأني إنما وعدت بنجاة من امن من أهلك ، و لهذا قال (و اهلك إلا مَن سبق عليه القول منهم)[١]، فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره و مخالفته أباه نبي الله نوحاً (عليه السلام))[٢]، و قوله (إنه عملٌ غير صالح) (أصله إنه ذو عملٍ فاسد ، فحذف (ذو) للمبالغة بجعله عين عمله لمداومته عليه)[٣]، و قوله (إني أعظك أن تكون من الجاهلين) (أي أنهاك عن هذا السؤال ، وأُحذرك لئلا تكون ، أو كراهية أن تكون من الجاهلين)[٤]، و ذلك بأن (تدعو بهلاك الكفار ، ثم تسأل نجاة كافر)[٥].

فاستجاب نوح للوصية ، و استغفر الله من سؤاله ، و كما قال سبحانه (قال ربّ إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علمٌ و إلا تغفر لي و ترحمني أكن من الخاسرين)[٦]، (أي استجير بك أن أتكلف مسألتك ... مما قد استأثرت بعلمه ، و طويت علمه عن خلقك ، فاغفر لي زلتي في مسألتي إياك ما سألتك في ابني ، و إن أنت لم تغفرها لي و ترحمني فتنقذني من غضبك (أكن من الخاسرين)يقول:من الذين غبنوا أنفسهم حظوظها و هلكوا)[٧].

وبعد ذلك أمر اللهُ نوحاً بالهبوط سالماً مُباركاً ، و كما قال تعالى (قيل يا نوح اهبط بسلامٍ منّا وبركات عليك و على أُممٍ ممّن معك ، و أُممٌ سنمتعهم ثمّ يمسهم منّا عذابٌ أليم)[٨]، و(قوله (اهبط) يحتمل أن يكون أمراً بالخروج من السفينة الى أرض الجبل ، و أن يكون أمراً بالهبوط من الجبل الى الارض المستوية)[٩]، و نرجح أن المقصود بذلك الهبوط من السفينة الى الجبل ، و هذا الهبوط ليس فيه خوفٌ عليهم لأن الطوفان قد انتهى ، فهو هبوط مصحوبٌ (بسلامة و أمن...(و بركات عليك) أي نعمٌ ثابتةٌ)[١٠]، قوله (وعلى أُمم ممن معك) (يعني وعلى قرون تجيْ بعدك من ذرية مَن معك في السفينة ، يعني من ولدك، وهم المؤمنون...(و أُممٌ سنمتعهم) أي أُمم سنمتعهم في الدنيا (ثم يمسهم منا عذاب أليم) و هم الكافرون)[١١]، و (دخل في هذا السلام كل مؤمن و مؤمنة إلى يوم القيامة ، و دخل في ذلك العذاب والمتاع كل كافر و كافرة إلى يوم القيامة)[١٢].

ولكن ما المدة التي استغرقها الطوفان ؟ و الجواب : لم يذكر لنا القران الكريم ولا السنة الشريفة مدته ، و هناك أقوال عدة ذكرت فترات زمنية مختلفة ، و لكنها أقوال لا تستند إلى أي

---

[١] سورة المؤمنون الاية (٢٧) .
[٢] تفسير القران العظيم / ابن كثير (٢ / ٤٤٧) .
[٣] روح المعاني / الالوسي (١٢ / ٣٧١) .
[٤] الجامع لأحكام القران / القرطبي (٩ / ٤٨) .
[٥] معالم التنزيل / البغوي (٢ / ٤٥٢) .
[٦] سورة هود الاية (٤٧) .
[٧] جامع البيان / الطبري (١٢ / ٦٤) .
[٨] سورة هود الاية (٤٨) .
[٩] مفاتيح الغيب / الفخر الرازي (٦ / ٣٦٠) .
[١٠] الجامع لأحكام القران / القرطبي (٩ / ٤٨) .
[١١] معالم التنزيل / البغوي (٢ / ٤٥٢) .
[١٢] جامع البيان / الطبري (١٢ / ٦٤) .

دليل ، لذا فإننا نقول: بما أن الطوفان كان غضباً من الله تعالى على الكافرين ، فليس هناك حاجة لأن يستغرق نزول الماء من السماء فترة زمنية طويلة ، و بالتالي فإننا نرجح أن الطوفان كان في يومٍ واحد ، ليكون تأكيداً على صدق نبيه(نوح)(عليه السلام) و الله أعلم .

وهكذا الحال في الأقوال التي قيلت حول ارتفاع أمواجه ، و لا يمكن لنا الجزم بأي قولٍ منها ، ونكتفي بالقول أنه غمر سطح الأرض بسهولها ،و جبالها ، و نرجح أنه عمّ جميع الارض ، لأنّ الله أمره بحمل زوجين اثنين من كل صنفٍ من أصناف الحيوانات حتى لا تنقرض ، و لو لم يكن عاماً لما أمره بذلك ، أيضاً فقوله (و فجرنا الارض عيوناً)[١]، وقوله (و قيل يا أرضُ ابلعي ماءك)[٢]، يشير إلى هذا ، كذلك فلو لم يكن عاماً لما أمر الله نوحاً بصناعة السفينة ، و لأمره بالإنتقال مع المؤمنين إلى أرض بعيدة عن الكافرين حتى لا يتعرضوا للخطر ، مثلما أمر الله لوطاً (عليه السلام) بالإنتقال مع المؤمنين إلى أرضٍ بعيدة عن الكافرين ، و كما قال سبحانه (فأسر بأهلك بقطعٍ من الليل و اتبع أدبارهم و لا يلتفت منكم احدٌ وامضوا حيث تؤمرون)[٣].

وبعد أن نزلوا من السفينة بدأت حياة جديدة على سطح الارض، و تفرقت الحيوانات في أنحائها لتعود إلى دورة حياتها، وبعد فترة من الزمن أدرك الموتُ المؤمنين فلم يُخلّفوا عقباً، وبقي أولاد نوح (عليه السلام) فتناسلوا ، وكما قال تعالى (ذرية مَن حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً)[٤]، وهذا يعني أن (جميع الخلق ألأن من ذرية نوح (عليه السلام))[٥]، والله أعلم.

وهكذا انتهت قصة نوح مع قومه، ولتبدأ حياة جديدة للبشرية على سطح المعمورة بعد الطوفان .

الخاتمة

بعد نهاية بحثنا هذا استنتجنا كثيراً من النتائج ، من أهمها :

أولاً: أن الغلو في حب الصالحين قد يدفع الى تقديسهم، وبالتالي إلى عبادتهم، وهذا ما حدث لقوم نوح .

ثانياً: أن الشيطان يحاول أن يستغل جهل الإنسان ليملي عليه بوساوسه اشياء ما أنزل الله بها من سلطان .

ثالثاً : أن المدة الزمنية ما بين ادم و نوح (عليهما السلام) تمتد الى الآف السنين .

رابعاً : أن مدة لبث نوحٍ في قومه منذ بداية دعوته وإلى حين الطوفان كانت تسعمائة وخمسين سنة ، و هي أطول مدةٍ لبثها نبيٌ في قومه ، و هذا يعني أن عمره الكامل أكبر من تسعمائة وخمسين سنة ، و الله أعلم .

---

[١] سورة القمر الاية (١٢) .

[٢] سورة هود الاية (٤٤) .

[٣] سورة الحجر الاية (٦٥) .

[٤] سورة الإسراء الاية (٣) .

[٥] البحر المحيط / ابو حيان (٤ / ٣٢٠) .

خامساً : أن الرواية التي ذكرت سلسلة النسب من نوح إلى ادم ، رواية ضعيفة لا يمكن الاعتماد عليها .

سادساً : أن عدد أبناء نوح ، أربعة ، أحدهم كافر و اسمه يام (كنعان) ، و أنه ابنه حقيقة ، ولكنه كفر به .

سابعاً : أن معنى خيانة زوجة نوح هو كفرها برسالته ، و ليس خيانة فراش الزوجية .

ثامناً : أن القرابة و المصاهرة لا تنفع إذا كان احد الأطراف كافراً ، و هذا ما حدث لزوجة نوح و ابنه ،حيث غرقا مع الغارقين ، و أن آصرة العقيدة أقوى الأواصر ، لذا أنقذ اللهُ المؤمنين بنوح من الغرق،و إن لم يكونوا من أقاربه .

تاسعاً : أن اتخاذ الأسباب لا يتنافى مع التوكل ، لذا أمر الله نوحاً بصناعة السفينة ، و إن كان قادراً على انقاذهم من غير حاجة إليها .

عاشراً : أن الطوفان كان عاماً شمل جميع انحاء الأرض ، إذ تفجّرت عيون الماء من جميع أنحائها ، اضافة الى النازل من السماء ، لذا أمر اللهُ نوحاً بحمل زوجين اثنين من كل صنفٍ من أصناف الحيوانات حتى تستمر الحياة على سطح الأرض بعد نهاية الطوفان ، و أنّ جمع الحيوانات على تباعدها و اختلافها كان بمعجزة من الله تعالى .

حادي عشر : أننا لا نستطيع تحديد المدة التي استغرقها الطوفان غير أننا نعتقد أنه كان في يومٍ واحد .

ثاني عشر : أن البشر بعد الطوفان يعود نسبهم إلى نوح ، إذ مات مَن معه من المؤمنين دون أن تكون لهم ذرية ، أما أولاده فتناسلوا و تكاثروا .

ثالث عشر: أن الله تعالى ذكر قصة نوح في السور المكية دون المدنية تسلية للنبي (صلى الله عليه وسلم) وتثبيتاً لقلوب المؤمنين ، و تحذيراً للكافرين حتى لا يصيبهم ما أصاب غيرهم إن استمروا على كفرهم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، و الصلاة و السلام على سيدنا محمدٍ و آله وصحبه أجمعين.

المصادر و المراجع

١- القران الكريم .

٢- اضواء البيان في ايضاح القران بالقران / الشنقيطي ، محمد الأمين بن محمد المختار ت١٣٩٣ هـ، دار احياء التراث العربي – بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٦ م .

٣- انوار التنزيل واسرار التأويل/البيضاوي،عبد الله بن عمر ت٦٩١هـ، دار احياء التراث العربي–بيروت، ١٩٩٨م.

٤- البحر المحيط/ابو حيان الاندلسي،محمد بن يوسف،ت ٧٥٤هـ،دار احياء التراث العربي- بيروت، ط٢، ١٩٩٠م.
٥- البداية والنهاية/ ابن كثير،اسماعيل بن عمر، ت ٧٧٤ هـ، دار ابي حيان – القاهرة، ط١، ١٩٩٦ م .
٦- تأريخ الرسل و الملوك/الطبري،محمد بن جرير،ت ٣١٠ هـ،دار المعارف-القاهرة ،ط٥، ١٩٦٧ م .
٧- تفسير القران العظيم / ابن كثير ، مؤسسة المختار-القاهرة ، ط٣ ، ٢٠٠٢ م .
٨- جامع البيان في تأويل آي القران / الطبري ، دار الفكر – بيروت ،ط ١ ، ٢٠٠١ م .
٩- الجامع لأحكام القران/القرطبي،أبو عبد الله،محمد بن أحمد،ت ٦٧١ هـ،دار القلم-القاهرة،ط ٣، ١٩٦٦م.
١٠-روح المعاني في تفسير القران العظيم و السبع المثاني/ الالوسي، محمود شكري البغدادي،ت ١٢٧٠هـ، دار احياء التراث العربي – بيروت ، ١٩٩٩ م .
١١-السيرة النبوية/ ابن هشام ، عبد الملك ت ٢١٨ هـ، دار احياء التراث العربي – بيروت، ط ٣، ٢٠٠٠م.
١٢-صحيح البخاري / محمد بن اسماعيل ت ٢٥٦ هـ، دار البيان الحديثة – القاهرة ، ط ١، ٢٠٠٣ م .
١٣- صحيح مسلم / مسلم بن الحجاج ت ٢٦١ هـ ، دار احياء التراث العربي – بيروت، بدون تأريخ .
١٤- فتح الباري شرح صحيح البخاري/ابن حجر العسقلاني، احمد بن علي، ت ٨٥٢ هـ، دار الكتب العلمية-بيروت، ط١، ٢٠٠٤م .
١٥- في ظلال القران / سيد قطب ، دار الشروق – القاهرة ، ط١ ، ١٩٨٨ م .
١٦- القاموس المحيط/الفيروز آبادي،محمد بن يعقوب،ت ٨١٧هـ، دار احياء التراث العربي- بيروت،ط٢، ٢٠٠٣م.
١٧-الكامل في التأريخ/ابن الأثير،ابو الحسن،علي بن محمد،ت ٦٣٠هـ ،دار صادر، بيروت، ١٩٦٥م.
١٨- الكشاف/ الزمخشري ، محمود بن عمر، ت٥٢٨ هـ، دار الكتاب العربي – بيروت ، بدون تأريخ .
١٩-محاسن التأويل/القاسمي، محمد جمال الدين، ت ١٣٢٢ هـ، دار احياء التراث العربي- بيروت، ٢٠٠٢م.

٢٠- المستدرك على الصحيحين/ الحاكم النيسابوري ، محمد بن عبد الله ،ت ٤٠٥ هـ، دار الكتب العلمية- بيروت ، ط١ ، ١٩٩٠ م .
٢١- معالم التنزيل / البغوي ، ابو محمد، الحسين بن مسعود ، ت ٥١٦ هـ، دار احياء التراث العربي- بيروت ، ط٢ ، ٢٠٠٢ م .
٢٢- مفاتيح الغيب/الفخر الرازي، محمد بن عمر ، ت ٦٠٦ هـ ،دار احياء التراث العربي – بيروت، ط٤، ٢٠٠١م.
٢٣- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج/النووي، محيي الدين، أبو زكريا، يحيى بن شرف، ت ٦٧٦هـ، دار ابن الهيثم – القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٣ م .